

خطبة الجمعة - الخطبة ٣٢٩ : خ ١ - ميلاد سيدنا عيسى ، خ ٢ - مجتمع النمل.
لضيالة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩١-١٠-٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ، ونستعين به ونسترشده ، وننحوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضل فلن تجد له ولينا مرشدًا . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر . وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر ، ما اتصلت عين بمنظر ، أو سمعت أذن بخبر . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه وعلى ذريته ومن وآله ومن تبعه إلى يوم الدين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا من يستمعون القول فيتبعون أحسنها ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

اصطفاء الله عز وجل الأنبياء و الرسل :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ في سورة آل عمران قصة آل عمران ، ومن آل عمران سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . يقول الله تعالى في الآية الثالثة والثلاثين من سورة آل عمران :

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

[سورة آل عمران : ٣٣]

الاصطفاء هو الاختيار ، والله سبحانه وتعالى في آيات أخرى يبين سبب الاصطفاء .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَائِعِينَ﴾

[سورة الأنبياء: ٩٠]

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حِينَ يَجْعَلُ رِسَالَةً﴾

[سورة الأنعام: ١٢٤]

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

[سورة الدخان: ٣٢]

فهذا الاصطفاء ، وذاك الاختيار ، إنما كان على علم .

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

[سورة آل عمران : ٣٣]

﴿وَإِذْ أَبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبِّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمَنْ ذَرَّنِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

[سورة البقرة: ١٢٤]

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهُدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾

[سورة السجدة: ٢٤]

الله سبحانه وتعالى حينما يختار ، وحينما يصطفى ، وحينما يسمح لإنسان أن ينطق بالحق ، فلهذا السماح ، ولذاك الاصطفاء والاختيار أسباب دقيقة ، وجليلة .

الله سبحانه وتعالى سميع لنداء الإنسان لا تخفي عليه خافية :

يا أيها الأخوة المؤمنون :

﴿ذُرْيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعُ عَلِيهِ﴾

[سورة آل عمران : ٣٤]

لماذا اختار الله من أسمائه الحسنى التسعة والتسعين : سميع عليم ؟ قال بعض المفسرين : لأن الله سبحانه وتعالى سميع لندائك ، أو لدعائك ، أو لنجواك ، عليم بنبيتك ، وحالك ، لا تخفي عليه خافية ، لا تخفي عليه نواياك ، ولا يخفى عليه سرك ، ولا يخفى عليه ما تصبو إليه ، وهو يسمع كلامك ، ونجواك ، ودعائك ، وأقوالك .

يا أيها الأخوة المؤمنون ؛ حينما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

[سورة آل عمران : ٣٣]

آدم : أول بني آدم ، نوح : أول الأنبياء ، والرسل الذين بعثهم الله عز وجل بعد أن عبد الناس الأوثان ، وحينما قال الله عز وجل : وآل إبراهيم ، فنبينا عليه الصلاة والسلام من نسل إبراهيم . وقد قال عليه الصلاة والسلام : " أنا دعوة أبي إبراهيم " :

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُرَكِّهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[سورة البقرة: ١٢٩]

على كل إنسان أن يقدم شيئاً لله عز وجل :

يا أيها الأخوة المؤمنون ؛ ندخل إلى موضوع القصة بشكل مباشر :

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحرَرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

[سورة آل عمران : ٣٥]

لابد من وقفة متأنية مع هذه الآية . امرأة عمران تلك المرأة الصالحة ، تلك المرأة التي عرفت ربها ، تلك المرأة التي عرفت ما عند الله من إكرام ، تلك المرأة التي أرادت أن تقدم الله شيئاً خالصاً ، ماداً تملك هذه المرأة ؟ لا تملك إلا ما في بطنها ، لقد كانت حاملاً من عمران .

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾

[سورة آل عمران : ٣٥]

اتجه طموحها إلى أن الذي في بطنها ذكراً ، وأن هذا الذكر ، إذا قدمته لبيوت الله كي يخدمهم ، فقد قدمت شيئاً .

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ سؤال دقيق . هذه المرأة أليس لها اسم ؟ ربنا سبحانه وتعالى اكتفى بأن قال : امرأة عمران . ما المغزى من إغفال اسمها ؟ المغزى من إغفال اسمها أن المرأة هذه بالذات ليست هي المقصودة من تلك القصة ، المقصود أن أي إنسان عليه أن يقدم شيئاً لله عز وجل ، ليسقصد من هذه القصة الواقع ، والشخصيات ، وإنما المغزى : الأعمال الطيبة التي فعلوها ، لتكون هذه الأعمال الطيبة نبراساً لنا .

علاقة كل إنسان بقصة امرأة عمران التي ورد ذكرها في القرآن :

فيما فيها الأخ الكريم ؛ يا من تقرأ القرآن الكريم ؛ يا من خاطبتك الله عز وجل في أكثر آيات القرآن

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

ما علاقتك بهذه القصة ؟ ما علاقتك بامرأة عمران التي ورد ذكرها في القرآن ؟ ما علاقتك بهذه القصة التي أصبحت قرآنًا يتلى ؟ ما علاقتك ؟

ماذا قدمت ؟ هل قلت : يا رب إن شهادتي العالية نذرتها في خدمة خلقك ؟ إن القوة التي آتنيتني إياها سأبدلها رخيصةً في نصرة عبادك الضعفاء المظلومين ؟ إن المال الذي آتني إياه سأنفقه رخيصاً في تخفيف آلام عبادك الطائعين ؟ ماداً قدمت ؟

يا أيها الأخ الكريم ؛ يا أيها الأخ المؤمن ، يا من تجلس في بيته من بيوت الله ، ما العمل الذي ادخرته لآخرتك ؟ بم تلقى الله ؟ هل نذرت علمك لتنشره بين الناس ، فيسعد به الجهلاء ، هل نذرت مالك لتفقهه بين الفقراء ليسعدوا بهذا المال ، هل نذرت قوتك وجاهك للضعفاء و المساكين و المظلومين و المحرومين ؟

((يا بشير لا جهاد ولا صدقة فبماذا تدخل الجنة ؟))

[رواية أحمد في مسنده (٢٢٤/٥) عن بشير . قال : فلا جهاد ولا صدقة فلم تدخل الجنة إذا . . .]

فبم تلقى الله إذا ؟ درست ، تاجرت ، جمعت المال ، اشتريت البيت ، تزوجت ، أكلت ما لذ و طاب ، ثم مادا ؟ لابد من أن تقف بين يدي الله عز وجل . يقول : أعطيتك مالاً ، فماذا صنعت فيه ؟ لئلا تقول : يا رب لم أُنفق منه شيئاً على أحدٍ مخافة الفقر على أولادي من بعدي . فيقول

الله عز وجل : " ألم تعلم بأنني أنا الرزاق ذي القوة المتنين . إن الذي خشيته على أولائك من بعدي قد أنزلته بهم ؟ "

لئلا تقف بين يدي الله عز وجل ، ويقول لك : عبدي أعطيتك علماً فماذا صنعت فيه ؟ هل عملت بما علمت ؟ هل أنفقت هذا العلم ؟ هل كنت قدوةً لخليق ؟ هل كنت عند الأمر والنهي ؟ هل وجدتك حيث أمرتكم ؟ هل افتقدتك حيث نهيتكم ؟ ماذا فعلت بهذا العلم ؟ ماذا عملت به ؟ لئلا تقف بين يدي الله عز وجل ، ويقول الله لك : عبدي أعطيتك عمرًا مدیداً ، كيف أنفقت هذا العمر ؟ فيم أبليت شبابك ؟ فيم أبليت عمرك ؟ هذه امرأة اصطفها الله على العالمين . لماذا اصطفها ورفع شأنها وذكرها في القرآن الكريم وأعلى قدرها ؟ ما فعلت شيئاً ، إلا أنها نوت ، أرادت أن تقدم كل ما تملك نذراً لله عز وجل .

طالبان يدرسان في الجامعة ؛ طالبٌ يتمنى أن يحصل مالاً وفيراً من اختصاصه، وطالبٌ آخر يتمنى أن يكون هذا العلم الذي يتعلم في سبيل خدمة خلق الله عز وجل . هذا يرقى إلى أعلى عليين ، وهذا يسفل إلى أسفل سافلين . تاجران متجاوران هذا يرجو بماله أن ينفقه على كل محتاج مسكين ، ويمسح به آلام المؤساء ، والضعفاء . وهذا يرجو بماله أن يغرق في النعيم . هذا يعلو به إلى أعلى عليين ، وذاك يسفل بهذه النية إلى أسفل سافلين . من هنا ورد في الحديث الصحيح المتواتر ، ويعود هذا الحديث أصلاً من أصول الدين :

((إنما الأعمال بالنيات))

[البخاري عن عمر]

العمل يمكن أن يغدو عبادة لله أو لمطامع النفس :

ما ذا فعلت امرأة عمران ؟ ما زادت عن أن قالت وهي صادقة :
﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحرَّزاً ﴾

[سورة آل عمران : ٣٥]

تملك شبابك ، تملك عضلاتك ، تملك علمك ، تملك مالك ، هذه الأشياء التي تملكها هل استهلكتها استهلاكاً تافهاً رخيصاً أم استثمرتها عند الله عز وجل ؟ تتعلم اللغة لماذا ؟ كي تجمع الأموال ، وتتعدد أعمالك في الحياة ، أم من أجل أن تنشر الحق بهذه اللغة ؟
يا أيها الأخوة الأكارم ؛ كلام دقيق ، وكلام خطير . ما الذي قدمته الله عز وجل ؟ ما الذي ادخرته عند الله ؟ إن امرأة عمران قالت :

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحرَّزاً ﴾

[سورة آل عمران : ٣٥]

أي خالساً ، لا يشوبه شائبة . أردت بهذا مرضاتك ، أردت بهذا وجهك الكريم .

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾

[سورة الليل : ٢١-١٩]

﴿فَتَقْبَلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

هل تعلمون أيها الأخوة أن دراساتكم ، وأعمالكم ، ومهنكم يمكن أن تغدو قرباناً عند الله عز وجل ، يمكن أن يغدو عملك عبادةً لله عز وجل ، تعلمت الطب ، وها أنت ترجو من هذا الاختصاص أن تمسح بؤس البائسين ، وأن تزيل عن الناس شبح المرض الخطير . وطبيب آخر يرجو من طبّه أن يكون من الأثرياء .

يا أيها الأخوة المؤمنون ؟

﴿فَتَقْبَلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

كل ذهنها ، كل خواطرها ، كل طموحاتها أن تلد ذكراً ، يكون في بيت الله خادماً له . وبهذه المناسبة هؤلاء الذين يخدمون بيوت الله ، هؤلاء الذين ينظفون بيوت الله ، هؤلاء الذين يرعون بيوت الله ، هؤلاء الذين يقيمون الشعائر في بيوت الله ، هؤلاء الذي نذروا وقتهم ، وغضالتهم ، وخبراتهم لتعريف الناس بالله عز وجل ، هؤلاء لهم عملٌ عظيم ، لا ينبغي لواحد أن يتأثر ، أو يتململ ، أو يتوانى ، أو يتکاسل . إن كل طموح امرأة عمران أن يكون ولدتها الذكر في خدمة بيوت الله عز وجل . فلما وضعتها كانت المفاجأة ، فلما وضعتها قالت :

﴿رَبِّي إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثِي﴾

فوجئت ، صُعِقت ، لقد كانت أنثى ، والأئمّة أيها الأخوة لها أعراضٌ تصيب بنى جنسها ، ولا ينبغي للمرأة أن تقim في المسجد دائمًا لما يلزماها من حيضٍ ، ونفس ، والأئمّة ضعيفة ، وقد لا تقوى على خدمة بيوت الله ، وإذا خالطت الأنثى الآخرين ، فربما تكلم الناس عنها ، ربما اتهموها ، إن هذه الأنثى يا رب لا تصلح كما تمنيت ، لا تصلح نذراً لك .

حكمة الله عز وجل في كل ما اختاره للإنسان :

﴿رَبِّي إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثِي﴾

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾

هو أعلم بما في هذه الأنثى من خير ، لذلك الرجل الذي تأتيه أنثى ، لو أنه عرف الله عز وجل قد يكون الخير كله من هذه الأنثى ، قد يكون نسله صالحًا ، ذريته صالحة ، قد تتجنب هذه الأنثى مصلحًا كبيراً ، قد تتجنب هذه الأنثى محسناً كبيراً ، قد تتجنب عالماً كبيراً ، فهذا الذي يضرج بالإلّاث ، ويرجو الذكور ، إنه لا يعرف حكمة الله عز وجل ، لأنّه ؛ يهب من يشاء إلّاثاً ، ويهب من يشاء الذكر ، ويجعل من يشاء عقيماً . والله حكمة كبيرة في كل ما اختاره للإنسان . قالت :

﴿رَبِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحرَّرًا فَتَقْبَلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَمَّا وَضَعْتُهَا قَالَتْ رَبِّي إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾

[سورة آل عمران : ٣٥]

إن من نسل هذه الأنثى نبيٌّ كريمٌ إِنَّهُ الْمَسِيحُ . لا تضجر يا أخي ولو جاءتك البنت الرابعة، والخامسة ، والسادسة ، لا تدري أين الخير ، هذه هدية الله لك ، هل تدري ما تكون هذه الأنثى ؟ ربّ ولد أتعب أهله ، وربّ أنثى كانت بركةً على هذه الأسرة ، بركةً منذ أن تولد ، وحتى أن تموت .

الذكر كالأنثى في شيئين ؛ التكليف و التشريف :

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾

ثم قالت :

﴿وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالْأُنْثَى﴾

يا رب ، لما نذرت ، لما أردت ، الأصلح أن يكون ذكراً ، ولكن حكمتك هكذا .

﴿وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالْأُنْثَى﴾

يستتبط من هذه الآية : أن أي عمل يفترض أن الذكر كالأنثى ، إن أي نظام وضعٍ ، إن أي تشريع يفترض أن الذكر كالأنثى تماماً هو خاطئ في هذه النظرة .
إن الذكر كالأنثى في شيئين : في التكليف ، وفي التشريف .

الأنثى مكلفة شأنها شأن الرجل ، والأنثى مشرفة عند الله ، وعند الناس شأنها شأن الرجل ، ولكن الذكر شيء ، والأنثى شيء آخر ، لكل مهمة ، قالت يا رسول الله : إن فلاناً تزوجني ، وأنا شابة ذات أهل ، ومال ، وجمال ، فلما كبرت سني ، ونفر بطني ، وتفرق أهلي ، وذهب مالي ، قال : أنت علىٰ كظهر أميولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا ، هو يكسب الرزق ، وإن ضممتهم إلىٰ جاعوا .

الأنثى كالذكر من حيث التكليف .

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾

[سورة آل عمران : ١٩٥]

ولكن الأنثى لها خصائص بنوية ، خصائص في جسمها ، وعواطفها ، وفي عقلها مهياً تهيئاً كاملاً لتكون أماً من الطراز الأول ، والرجل في بيته ، وفي عاطفته ، وفي عقليته ، مهياً تهيئاً كاملاً ليكسب الرزق ، فإذا بدلنا الموضع ، وخلطنا الأوراق وقعنا في فساد كبير .

الاستعاذه بالله من الشيطان الرجيم لحفظ الأولاد :

﴿وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمِّيْتُهَا مَرِيْمَ﴾

ومريم في اللغة التي كانت فيها العابدة .

﴿وَإِنِّي أُعِذُّهَا بِكَ وَذُرِّيْتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

[سورة آل عمران : ٣٦]

إذا رأيت ابنك يلعب أمامك أعده بالله من الشيطان الرجيم ، ليكون قرة عين لا ليكون نفحة على والديه . من علامات قيام الساعة :

((أن يكون المطر قيظاً ، والولد غيظاً ، ويغيب اللئام فيضاً ، ويغيب الكرام غيظاً))

[أخرج أبو نعيم في الطيبة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه من حديث طويل]

﴿وَإِنِّي أَعِذُّهَا بِكَ وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

[سورة آل عمران : ٣٦]

الغيرة المحمودة :

يا أيها الأخوة المؤمنون ؛ إن الصدقة لتقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير.

﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا﴾

زكريا : زوج خالتها ،

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾

وتجدها نجيبة ، مكرمة عند الله عز وجل .

هنا النقطة .

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾

مكان عبادتها ، مكان تبتلها ، مكان صلواتها، مكان عزلتها عن الناس ، هذا من معاني المحراب، كلما دخل زوج خالتها النبي الكريم زكريا

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾

العلماء ذهبوا مذاهب شتى في هذا الرزق إنها النجابة ، إنها الفهم ، إنها المعرفة ، إنها بعض الكرامات .

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنِّي لَكِ هَذَا﴾

من أين هذه المعرفة ؟ من أين هذه الفاكهة ؟ لك أن تفهمها كما تشاء .

﴿قَالَتْ هُوَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾

[سورة آل عمران : ٣٧-٣٨]

هذا الذي أتمناه عليكم أن تقروا عنده ملياً ، ألا تغار أيها الأخ الكريم :
ملك الملوك إذا وهب قم فسائل عن السبب
الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

زكريا هذا النبي الكريم ؛ لما رأى النجابة ، والمعرفة ، والفتنة ، والكرامة من هذه البنت الطاهرة ، الذكية ، العابدة ، المتبتلة ، التائبة . تمنى له ولداً مثلك ، هذه الغيرة المحمودة.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَيُتَنَافَسُ الْمُتَنَافِسُونَ﴾

[سورة المطففين : ٢٦]

﴿لِمَنِ هَذَا فَلَيَعْمَلُ الْعَامِلُونَ﴾

[سورة الصافات: ٦١]

فِي ذلِكَ فَلِيفِرُهُوا ، أَلَا تغَارِ يا أخِي إِنْ رَأَيْتَ شَاباً مُؤْمِناً ، تقياً ورعاً ، حافظاً لكتاب الله ، مجوداً له ، يدعُو ربَّه آناء الليل ، وأطْرافَ النهار أجرى الله على يديه الخير ، أَلَا تَتَمَنِي أَنْ تكونَ مثْلَه ؟ أَلَّا تَمَنِي أَخْرِي ؟ مِنْ نوْعٍ آخَر ؟ رَبُّنَا وَاحِد ، وَكُلُّنَا عَبْدُه ، وَاللهُ سَبَّانُه وَتَعَالَى يَقُولُ فِي آيَةٍ كَرِيمَةٍ :

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْتُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[سورة ص: ٣٨]

﴿كُلَا نُمَدْ هُؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾

[سورة الإسراء : ٢٠]

أَيْ هَذِهِ الْقَصَّةُ أَيْهَا الْأَخْوَة ؟ أَتَمْنِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْلُوا إِلَى أَعْمَاقِهَا ، إِلَى مَغْزَاهَا ، اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ كَائِنَهُ يَقُولُ لَنَا : تَمَنَّوْا يَا عَبْدِي ، اطْلُبُوا مِنِّي مَا شَتَّمْتُ وَلَكُنُوا صَادِقِينَ ، أَنَا لَا أَتَعْمَلُ مَعَ التَّمَنِيَاتِ ، لَا أَتَعْمَلُ مَعَ أَنْ تَتَمَنِي ، وَأَنْتَ قَاعِدٌ ، اصْدِقْ فِي طَلْبِكَ ، اطْلُبْ أَنْ تَكُونَ مَهْتَدِيًّا ، تَهْتَدِي ، اطْلُبْ أَنْ تَكُونَ مُحْسِنًا ، تَصْبِحْ مُحْسِنًا ، تَعْلَمْ كِتَابَ اللَّهِ ، عَلَّمَهُ لِلنَّاسِ ، مَاذَا تَفْعَلُ ؟ لِمَاذَا الْآخَرِينَ أَفْضَلُ مِنْكَ ؟ لِمَاذَا ؟ أَلَا تغَارِ مِنْهُمْ ؟ هَذِهِ الْغِيْرَةُ الْمُحْمُودَةُ فِي مَجَالِ التَّقْوَى ، فِي مَجَالِ الْعَمَلِ لِلدارِ الْآخِرَةِ ، هَذِهِ هِيَ الْغِيْرَةُ الْمُحْمُودَةُ ، هَذِهِ هِيَ الْغِيْرَةُ الْمُضْرُورَيَّةُ .

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَاً رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَانِمٌ يُصْلِي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾

[سورة آل عمران: ٣٩-٣٨]

يُجَبُ أَنْ تَتَمَنِي عَلَى اللَّهِ ، يُجَبُ أَنْ تَدْعُوَ اللَّهَ ، مَا الَّذِي تَطْمَحُ إِلَيْهِ ؟ أَنْ تَتَعْلَمَ كَلَامَ اللَّهِ ؟ أَنْ تَعْلَمَهُ لِلنَّاسِ ؟ أَنْ يَكُونَ لَكَ مَالٌ وَفِيرَ تَقْفَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ أَنْ تَمْسِحَ بِهِ آلامَ النَّاسِ الْفَقَرَاءِ ؟ أَنْ تَكُونَ ذَا مَرْكَزٍ قَوِيًّا تَتَصَرَّرُ بِهِ الْعَصِيفَ وَتَقْيِيمُ الْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ ؟ مَاذَا تَقْعُلُ ؟ هَذَا الَّذِي يَأْكُلُ ، وَيَشْرُبُ ، وَيَنْامُ ، هَذَا إِنْسَانٌ يَعِيشُ عَلَى هَامِشِ الْحَيَاةِ ، هَذَا إِنْسَانٌ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ أَحَدٌ . قَالَ تَعَالَى :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَاً رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَانِمٌ يُصْلِي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾

[سورة آل عمران: ٣٩-٣٨]

حاجة الدُّعَاءِ إِلَى الصَّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ لَا إِلَى الصَّبْرِ وَالصَّوْتِ الْمَرْفَعِ :

وَزَكْرِيَاً أَيْهَا الْأَخْوَةِ فِي سُورَةِ مَرِيمِ :

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾

[سورة مريم: ٣]

الدعاء لا يحتاج إلى صخب ، ولا إلى صوت مرتفع ، ولا إلى ضجيج، ولا إلى تفاصح ، ولا إلى فيهقة ، يمكن أن تدعوا الله في سرك . والله سميع الدعاء . إذا رأى منك الصدق ، والإصرار، والإخلاص ، اعلم علم اليقين أن الله سيجيبك على دعائك .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَانِمٌ يُصْلَى فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسِيدًا وَحَصُورًا وَتَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

[سورة آل عمران : ٣٩]

لكن الشيء العجيب ، خلاف المألوف ، القواعد ، والقوانين ، وال السنن .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَأِي عَاقِرٌ قَالَ ذَلِكَ اللَّهُ يَقْعُلُ مَا يَشَاءُ ﴾

[سورة آل عمران : ٤٠]

الله على كل شيء قادر .

﴿ قَالَ ذَلِكَ اللَّهُ يَقْعُلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعِلْ لِي آيَةً ﴾

[سورة آل عمران : ٤١-٤٠]

عرفني متى يقع الحمل تماماً كي أبادر إلى شكرك .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعِلْ لِي آيَةً قَالَ أَيْتُكَ أَنَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾

[سورة آل عمران : ٤١]

بالإيماء . حينما ينحبس لسانك ، ينعد الحمل عند زوجتك .

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا ﴾

وأنت في حال ألا تستطيع أن تكلم الناس ، فكيف لو كان بإمكانك أن تكلم الناس ؟ لا تستطيع أن تقف عن الذكر حتى إذا توقف اللسان عن الكلام .

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشَيْ وَالْإِبْكَارِ ﴾

[سورة آل عمران : ٤١]

وبعدها أيها الأخوة نعود إلى قصة مريم إن شاء الله تعالى نتابع القصة في خطبة قادمة .

ما يستتبع من قصة مريم :

أيها الأخوة المؤمنون ؟ من هذه القصة يستتبع ما يلي :

أولاً : يجب أن يكون لك عمل تلقى الله به ، كل شيء أتاك الله في الدنيا يمكن أن يوظف للآخرة ، من علم ، أو مال ، أو قوة ، هذا الذي أعطاك الله إياه ، أعطاك صحة ، هذه الصحة يمكن أن توظف للآخرة ، أعطاك مالاً ، ومركزاً ، وعلمًا ، وقوة ، والشيء الآخر إذا نذرت ما عندك خالصاً لوجه الله عز وجل ، لا تعلم كم سيكون الخير منك ، ربما جاء الخير من حيث تحسب ، ومن حيث لا تحسب ، من حيث تتوقع ، ومن حيث لا تتوقع .

أيها الأخوة الكرام ؛ حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا لغيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا ، الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هوها ، وتنوى على الله الأماني .

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، صاحب الخلق العظيم ، اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

مجتمع النمل :

أيتها الأخوة الكرام ؛ أثبتت الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم للنملة الكلام ، قال عزّ وجلّ :
﴿حتى إذا أتوا على وادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمْنَكُمْ سُلَيْمانٌ وَجَنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

[سورة النمل : ١٨]

أثبت لها الكلام ، وأثبت لها المعرفة ، إن هذانبي كريم ، لا يعقل أن يدوسكم وهو يشعر . فماذا قال العلماء عن النملة ؟ قال العلماء : إن النملة من أرقى الحشرات فطنة ، وقوة شم ، وصبراً ، وتنظيمًا اجتماعياً ، وإيجاراً للغذاء .

إن النملة أيها الأخوة . . . تشق الحبة شقين ، كل بذرة لها فلقتين ولها رشيم تشقّها شقين ، لثلا تتبّت ، لتبقى غذاء ، أما إذا كان للحبة رشيمان ، تقسمها أربعة أقسام . من علمها أن لهذه الحبة رشيمين فلا بد أن تقسمها إلى أربعة أقسام ؟ وأن لهذه الحبة رشيمًا واحدًا ، فلا بد من أن تقسمها فسمين ؟

قال العلماء : النملة أيها الأخوة حشرة اجتماعية تموت إذا عزلت عن أخواتها ، ولو توافر لها غذاء جيد ، ومكان جيد ، وصفات جيدة . تموت بمجرد أن تعزلها عن أخواتها ، شأنها في هذا شأن الإنسان . لو عزلته في مكان منفرد ، بعيداً عن الصوت والضوء والساقة والزمن والليل والنهر عشرين يوماً ، يفقد توازنه العقلي .

يا أيها الأخوة المؤمنون ؛ يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَاهِيهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾

[سورة الأنعام : ٣٨]

هناك لمملكة النمل مملكة تأمر وتنهى وتطيع ، ولها السلطة المطلقة ، ولكن إذا وجد ملكتان أو أكثر في مجتمع آخر من النمل ، تتفاهم هذه الملوكات وتشاور وتشترك في تنفيذ الأمر والنهي على عكس ملوكات النحل .

يا أيها الأخوة المؤمنون ؛ ذكور النمل للتفريح ، وإناثه للعمل ، وإناثه بيضن بيوضاً لذبحة الطعم ليست ملقة ، ولكنها تعدّ غذاء راقياً جداً لبعض النمل الصغير . بعض العاملات لهن خدمة داخل الوكر أو داخل البيت ، وعاملاتٌ يعملن خارج البيت . وفي النملة جهاز هضمي مثير للدهشة ، فيه فم ، ومريٍ ، ومعدة ، وأمعاء ذات أنواع ثلاثة ، وفي هذه الأمعاء قوة مصٍ وضخٍ، تمسّكُ الغذاء وتضخه . والنملة تعلم الإنسان درساً بليغاً ، إذا التقت نملةٌ جائعة بأخرى شبعانة ، تعطي الشبعى الجائعة خلاصاتٍ غذائية من جسمها .

وا والله ما آمن والله ما آمن ، من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع، من صفات النملة أنه إذا التقت نملةٌ شبعى بنملةٌ جائعة ، فإن الشبعى تعطي الجائعة خلاصةً من غذائهما المهدوم .

في النملة مخٌ صغير ، فيه أعصاب وخلايا عصبية ، بإمكان هذا المخ تخزين المعلومات ، بل وتخزين الخرائط ، بل والاهتداء به إلى موقع الغذاء ، بل والاهتداء إلى العش ، أو الوكر الذي ترجع إليه .

قال بعض العلماء : إن النملة تمتلك نوعاً من التصرف العقلاني ، هي من أذكى الحشرات . يا أيها الأخوة المؤمنون ؛ لكل مستعمرة من النمل كلمة سرٌ ، رائحة خاصة ، لا يمكن أن تدخل نملة إلى عش نملة أخرى ، لأن على العش عاملاتٌ يحفظن كلمة السر ، فإن لم تتطق هذه النملة بكلمة السر الخاصة بهذا البيت ، فإنه لا يسمح لها بالدخول .

قال العلماء : ترى النملة ما لا يراه الإنسان ، عند النملة حساسيةٌ لبعض أمواج الضوء القصيرة، فهي ترى ما لا يراه الإنسان ، وتملك النملة قوة اهتاءٍ بالضوء . والأغرب من هذا أن النمل يملك لغةً ، كما قال الله عزٌّ وجلٌّ ، هذه اللغة عن طريق الرائحة ، وعن طريق الضوء ، وعن طريق الصوت . لغة النمل لها وظيفتان ، التواصل ، والإذار المبكر ، فلو أمسك عالمٌ نملةً وسحقها بين أصبعيه ، تنتشر رائحة ، هذه الرائحة تدعى النملات البعيدات أن يتبعن عن موقع المجازرة ، أو أن يقتربن إذا كان المعتدي ضعيفاً ، بإمكانهن أن يوقفنه عند حدّه .

أجرى بعض العلماء تجربة ، جاء بمجموعة الأخرى التي بعد الحاجز تهدي لها السكر ، وتخترق العقبات ، وهذا مما يؤكّد تفاظب النمل ، ربنا عزٌّ وجل يقول :

﴿وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

[سورة الأنعام : ٣٨]

هذا شيءٌ دقيقٌ جداً ، وكلما تقدّم العلم كشف إعجاز القرآن الكريم ؛ نملةٌ تقول ، ونملةٌ تعرف ، هكذا قال بعض العلماء : عندها شيءٌ من التصرف العقلاني . قالت :

﴿لَا يَحْطِمُنَّكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

[سورة النمل : ١٨]

هذه معرفة بمقام النبي . وحينما قال : قالت نملة : هذا قول ، فتارة تتوالى عن طريق الروائح ، وتارة عن طريق الصوت ، وتارة عن طريق الضوء ، ولها مخ ، ولها جهاز إفراز ، ولها جهاز تناسل ، ولها جهاز تنفس ، ولها جهاز هضم ، أين جهازها الهضمي من فم ومربي ومعدة وأمعاء ؟ وأين جهاز تناسلها ؟ وأين جهاز إفرازها ؟ وأين جهاز تنفسها ؟ ومتلك هذه النملة أدق نظام في التعامل الاجتماعي ، أمة لها مملكة ، ولها تنظيم ، وعاملات لجنبي المحاصيل ، والنمل لا يستهلك كل قوته لو كان في شتاء مديد ، لا يستهلك إلا نصف ما ادخره ، والنصف الآخر يبقيه غذاء احتياطياً للعام القادم ، هكذا النمل .

الدعاء :

اللهم اهدنا فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تبلغنا بها جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، ومتعمنا اللهم بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحبتنا ، واجعله الوراثتنا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا ، مولانا رب العالمين ، اللهم اكفنا بحالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبغضبك عمن سواك ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن رواعتنا ، وآمنا في أوطاننا ، واجعل هذا البلد آمنا سخياً رخيماً وسائر بلاد المسلمين ، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، ولا تهلكنا بالسنين ، ولا تعاملنا بفعل المسيئين يا رب العالمين ، اللهم بفضلك ورحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وخذ بيده ولاتهم إلى ما تحب وترضى ، إنك على ما تشاء قادر ، وبالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين